مقدمة تاريخية

فتح العرب مصر عام ٦٤١ ميلادية ؛ ولكنهم لم يغيروا كثيرا فى النظام الإدارى الذى خلفه فيها العصر البيزنطى ؛ فظل وادى النيل زهاء قرنين من الزمن يحكمه ولاة يعينهم أولياء الأمر فى بلاد العرب . على أن عرب مصر فى صدر الاسلام كان اتصالهم وثيقا بالحوادث فى شبه جزيرتهم ، وبما نشب بين المسلمين فيها من خلافات وحروب ؛ بل قد سار منهم وفد لعب دورا كبيرا فى الحوادث التى انتهت بقتل الخليفة عثمان .

ثم كان فى وادى النيل بعد ذلك شيعة لعلى ، وأنصار لمعاوية . وأرسل الأول من قبله الى مصر ثلاثة ولاة آخرهم محمد بن أبى بكر ، الذى ارتكب خطأ سياسيا كبيرا بتسييره أنصار معاوية الى الشام ؛ فلم يلبث ابن أبى سفيان ، بعد أن تقوى ساعده بالمدد الجديد ، أن بعث الى وادى النيل بجيش على رأسه عمرو بن العاص . وانتصر جيش الشام ، فاستقر الأمر فى مصر لبنى أمية . وعاد الى حكمها عمرو سنة ٦٥٨ من قبل معاوية ، الذى كافأه على إخلاصه ودهائه بأن جعل البلد طعمة له بعد عطاء جندها ونفقة ادارتها .

ثم قتل على ، واستتب الحكم للأمويين ؛ فولى مصر من قبلهم بعد وفاة عمرو واحد وعشرون واليا : ولى اثنان منهم الأمر مرتين ، وواحد ثلاث مرات ؛ وحكم واحد منهم البلد نحو تسعة أشهر نائبا عن ابن الزبير الى أن سار الى مصر مروان بن الحكم فطرده منها .

ولما كانت الدولة الأموية عربية بحتة ، فقد كان ولاة مصر فى عهدها كلهم عربا، كغيرهم من كبار عمال الدولة وموظفيها .

وفى سنة ٧٤٩ قويت الدعوة لبنى هاشم . وانتهت بسقوط بنى أمية سنة ٧٥٠ ، واستقام عود الخلافة لبنى العباس ؛ ففرّ الى مصر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وتبعه جيش عباسى على رأسه صالح بن على بن عبد الله ابن عباس ؛ فقتل مروان . وتقلد زمام الحكم صالح بن على ، من قبل أبى العباس السفّاح . وتوالى على مصر حتى سنة ٨٦٨ أربعة وستون حاكما : ولى أحدهم الأمر ثلاث مرات ، وولى تسعة آخرون الحكم مرتين .

وولاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم عربا . فقد طغت على مصر الصبغة الفارسية، التى طغت على بقية أجزاء الدولة العربية ؛ إذ قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالى، فاستعملهم خلفاؤها وقدّموهم على العرب .

ولكن نفوذ الجند من الأتراك فى خدمة البلاط العباسى ما لبث أن ظهر، وأخذ فى الزيادة حتى أصبح بيدهم مقاليد الأمر ، وعزل الخلفاء وتوليتهم ، واستولوا على أكبر وظائف الدولة ، فأصبح منهم الولاة والعمال . وقدم الى مصر أوّل وال تركى الأصل سنة ٨٤٦ .

على أن الامبراطورية العربية كانت من السعة بحيث استطاعت عوامل الضعف أن تتطرق اليها ؛ فاستقلت بلاد الأندلس ؛ وتبعتها بلاد المغرب حيث نشأت عدّة دويلات مستقلة . ولم يبق من بلاد شمال أفريقيا تابعا للخلافة العربية إلا بلاد أفريقية ، التى تعرف اليوم ببلاد تونس . وما لبث هارون الرشيد أن رأى عجزه عن حكم هذه البلاد لكثرة ثوراتها، والفتن فيها ،

فأقطعها دولة الأغالبـة ، التى ظلت تحكم الإقليم معترفة بسلطان اسمى لخليفـة بغـداد وتدفع له جزية كانت فى أكثر الأوقات اسميـة[1] . أما مصر فقد جاء دورها نحو سـنة ٨٢٧ ، حين بدأ الخلفاء سـنة اقطاعها أولياء عهدهم ، ثم قواد الجند من الترك ؛ ولكن هؤلاء القـواد الذين كانوا يمنحون مصر طعمة سائغـة لم يكونوا يرغبون فى البعد عن حاضرة الدولة وبلاط الخليفة ، وما فيهما من دسائس ومكائد ، ولم يكن الخليفة نفسه يتوق الى ابتعادهم عنـه ، خشية أن يعملوا على الاسـتقلال ، وشق عصا الطاعة . ولذا ترى أن هؤلاء الولاة لم يحكموا مصر بأنفسهم ، وانمـا كانوا يبعثون اليها بعمال من قبلهم . وكان هؤلاء يرسلون اليهم ما يتبقى من الخراج والجزية بعد دفع نفقات الدولة والادارة . وكان أصحاب الاقطاع يدفعون الى بيت مال الخليفـة ممـا يتلقونه من مصر مبالغ كانت تتفاوت قيمتها .

وفى سـنة ٨٦٨ تقلد حكم مصر القائد التركى باكباك . فاستخلف عليها أحمد بن طولون ، الذى أسس فيها أسرة لعبت فى التاريخ الفنى لوادى النيل دورا كبيرا .

وقد كان طولون (والد أحمد) مملوكا تركيا من بلاد منغوليا، أرسله حاكم بخارى الى بلاط بغداد ، فظل يرتقى حتى صار قائدا لحرس الخليفة .

وولد أحمد بن طولون ببغداد فى سبتمبر سنة ٨٣٥ ، ثم هجر الخليفة المعتصم مدينة المنصور، وانتقلت الحكومة الى سامرا (العاصمة الجديدة) ، حيث تلقى

(١) راجع : Vonderheyden : La Bérberie Orientale sous la Dynastie de Benou-l-Aglab المطبوع بباريس سنة ١٩٢٧

ابن طولون علومه العسكرية . وأخذ — فضلا عن ذلك — بقسط وافر من العلوم الدينية . ثم وفد ابن طولون الى مصر من قبل باكباك ، الذى كان قد تزوّج أرملة طولون بعد وفاة زوجها .

ولما توفى باكباك ولّى الخليفة على مصر قائدا تركيا آخر كان ابن طولون قد تزوّج ابنته فثبتت بذلك قدم ابن طولون وزاد نفوذه وأصبحت الاسكندرية تابعة له ، بعد أن كان لها حاكم مستقل عنه .

ثم كانت وفاة هذا الوالى الجديد إيذانا بفساد الأمر بين ابن طولون وبلاط بغداد . فأرسل أولو الأمر فى العراق جيشا لإخضاع ابن طولون . وكان فشل هذا الجيش ، وعجزه عن التقدّم الى مصر ، مشجعا لأحمد بن طولون على المغالاة فى مطامعه ؛ فشق عصا الطاعة ؛ وسيّر لاخضاع سورية حملتين ؛ ومدّ سلطانه على جزء من آسيا الصغرى . فأصبح خطرا يتهدّد الخلافة . وأحس بذلك الموفق أخو الخليفة وصاحب الأمر فى الدولة ، وكان قد انتهى من إخضاع ثورة الزنج ، ورأى أنه بالرغم من ذلك ، لا قوّة له على مواجهة ابن طولون ؛ فعمل على مصالحته ؛ غير أن مرضا أصاب ابن طولون أرغمه على ترك سورية والرجوع سريعا الى مصر حيث توفى سنة ٨٨٤ .

وظن بلاط الخليفة أن موت ابن طولون إيذان بانقراض دولته . ولكن سلسلة من الانتصارات أحرزها ابنه وخليفته خمارويه على جيوش العراق أرغمت الخليفة العباسى على مسالمته ، وعقد معاهدة اعترف فيها بخمارويه ، وبورثته مدّة ثلاثين سنة من بعده ولاة على مصر وسورية وبعض أقاليم آسيا الصغرى وأرمينيا .

وتوفى الخليفة المعتمد بعد ذلك ببضع سـنوات . وتزوج خلفه المعتضد بقطر الندى ابنـة خمارويه ، وزعم كثير من المؤرّخين أن الخليفة قصـد بذلك إفقار بنى طولون ؛ فقـد كان خمارويه مسرفا جدّ الإسراف ، تواقا الى الأبهة والعظمة ؛ فجهّـز ابنته بمـا لم تجهـز به عروس من قبـل . واستنزف ذلك وغيره خزائن الدولة حتى تركها خاوية، حين قتله خدمه سنة ٨٩٦ .

وتطرّق الاضمحلال الى دولة بنى طولون بعـد وفاة خمارويه . وولى البلاد بعـده ابنه جيش؛ فتنكّر لقوّاد أبيـه ولكبار رجال الدولة ، وانغمس فى اللهو والشراب ، فخلع وقتـل . وخلفه أخوه هرون بن خمارويه ؛ ولكن الداء كان قد تمكن فى إدارة البلاد، وظهرت روح الثورة فى الجند، وانقسموا فرقا يؤيد كل منهـا قائدا من قوّاد الجيش ، وزاد الطين بلّة أن ظهر القرامطة فى الشام وهدّدوا مصر، فسار اليهم جيش منها عاد بالهزيمة .

وكان الخليفة المعتضد قد توفى وخلفه المكتفى ؛ فأرسل هذا لإخضاع القرامطة جيشا على رأسه محمد بن سليمان ، أوقع بهم هزيمة كبرى . ثم واصل السير الى مصر، ولم يلق فيها مقاومة تذكر ، وحاول المصريون إنقـاذ الموقف بقتل هرون وتولية عمه شيبان بن أحمد بن طولون؛ ولكن ولاية هذا لم تزد عن بضـعة أيام ، واستطاع محمد بن سليمان وجنوده القضاء على الدولة الطولونيـة وأصبحت مصر ثانية إقليما تابعا للخلافة العباسية، ترسل اليه الولاة من قبلها[1] .

(١) راجع : Zaky M. Hassan: Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du IXe Siècle 898-905 (Paris 1933).